الدعوة إلى الله

لفضيلة الشيخ العلامة

عبد الظاهر أبو السمح

إمام الحرم المكي ومؤسس دار الحديث الخيرية

رحمه الله

اعتنى بنشره وخرج أحاديثه

محمد عوض عبد الغني المصري

دار الاستقامة

مصوراتي

أبي عبدالرحمن السلفي

الفلسطيني

الدعوة إلى الله

لفضيلة الشيخ العلامة

عبد الظاهر أبو السمح

إمام الحرم المكي ومؤسس دار الحديث الخيرية

رحمه الله

اعتنى بنشره وخرج أحاديثه

محمد عوض عبد الغني المصري

دار الاستقامة

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَة

الطَّبعَةُ الأُولَى

١٤٣١هـ/٢٠١٠م

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٨٩٩٦

جمهورية مصر العربية

ش الهدي المحمدي- احمد عرابي - مساكن عين شمس

القاهرة

تليفون: ٠٠٢٠١٨٥١٨٣٤٤٢-٠٠٢٠١٢٧٤٨٣٢٦٣

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٩٨٧٦٣٧٧

dar.alestkama@yahoo.com

dar.alestkama@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدىٰ قلوب عباده المؤمنين إليه، والصلاة والسلام علىٰ رسوله الذي بين السنة وحذر من البدعة، وأكمل الدين وأقام الحجة.

وبعد:

فالدعوة إلىٰ الله من أحسن الأقوال وأشرف الأعمال، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلىٰ الله، أجاب الله في دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، هذا خليفة الله[1].

وبالدعوة إلىٰ الله تنتقل الأمة إلىٰ الخيرية والتقدم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والدعوة إلىٰ الله وظيفة الرسل، والدعاة حملة الدعوة من بعدهم امتداد

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٠٢).

لنهجهم، وتحقيق لهدفهم، وهو هداية الناس إلىٰ ربهم ليعبدوه ويوحدوه، وهم في سبيل ذلك ضحوا بأوقاتهم وأموالهم، ليشتروا جنة عند ربهم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة:٢٠٧]، ولأجل القيام بواجبهم،وتحقيق غايتهم، تعلموا دينهم، وابتغوا هدي نبيهم ﷺ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف:١٠٨].

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥].

وبين أيدينا رسالة قيمة في بابها، نافعة في مضمارها، وارفة ظلالها، كتبها إمام الحرم المكي العلامة عبد الظاهر أبو السمح رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو تمرس في الدعوة إلىٰ الله وطاف لها البلدان، وطوف بالقرىٰ والنجوع يدعو إلىٰ الله وحده لا شريك له، ناهيًا عن عبادة القبور والشرك بالله سبحانه وتعالىٰ.

يبين فيها رَحِمَهُ اللَّهُ أهمية الدعوة، وأنواع الدعاة، موضحًا كيفية الدعوة، وعلىٰ [أي] أساس تقوم، مفصحًا عن أركانها، شارحًا لشروطها، مؤكدًا علىٰ أهمية الدعوة إلىٰ التوحيد.

ناصحًا للأمة بأن الدعوة إلىٰ الله طريق مجدها وعزها.

ثم يتحدث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه من الدعوة إلىٰ الله، محذرًا من السكوت والتغافل عنه.

ويطوف بنا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حول معنىٰ العبودية، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ

﴿ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وأنها أساس الدعوة إلىٰ الله، وهي الهدف الذي قامت لأجله الدعوة.

محذرًا من دعاء غير الله، وانتشار المنكرات والموبقات، والسكوت عن اقتراف المحرمات، كل هذا تجده في هذه الرسالة القيمة التي تتبعنا مقالاتها في مجلة الإصلاح الحجازية التي كان يرأس تحريرها العلامة محمد حامد الفقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والتي كانت تصدر من الحجاز (المملكة العربية السعودية) في أوائل القرن الهجري الماضي.

وهي من مجموعنا لمقالات العلامة عبد الظاهر أبو السمح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد رأينا نشرها مفردة لأهميتها، وعظيم الحاجة إليها.

نسأل المولىٰ سبحانه وتعالىٰ أن يغفر لكاتبها وجامعها وناشرها وقارئها، وأن يكتب النفع بها، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا الله أنت

أستغفرك وأتوب إليك

وكتبه

محمد عوض بن عمر بن عبد الغني المصري

محمود السيد محمد

الدعوة إلى الله تعالى(١)

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ أشرف الأعمال وأزكىٰ الخصال، وكفىٰ بها فضلًا أنها وظيفة الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، ووظيفة الذين أورثهم الله علمهم واتباع سنتهم.

ومن أجل الدعوة إلىٰ الله أُنزلت الكتب، وبُعثت الرسل، وكتب الجهاد، وخلقت الجنة والنار، وكان الموت والحياة، والدنيا والآخرة، والأرض والسموات.

لم يكن الله تعالىٰ ليخفىٰ علىٰ ذوي البصائر والعقول حتىٰ يحتاج الناس إلىٰ من يعرفهم به، ولا ليقيم الدليل علىٰ وجوده لولا ذلك الشيطان الرجيم

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الأول - ١٥/ ٢/ ١٣٤٧ هـ.

الذي اجتالهم عن فطرتهم، ولولا تلك الشهوات التي ركبت فيهم فحجبت بصائرهم ورانت علىٰ قلوبهم، وما كان لعبيد أذلاء فقراء أن يعصوا سيدهم ومليكهم ويتمردوا علىٰ أوامره وكتبه، وهو يحسن إليهم وينعم عليهم لولا الأمل الكاذب والجهل المركب والاغترار بالدنيا وزينتها وظنهم الخاطئ ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾.

ففطرة الله التي فطر الناس عليها هي معرفة ربهم والإذعان له -جل شأنه- بالعبودية.

ولكن لما كانت هذه الصوارف التي قدمنا ذكرها من أعظم ما يحول بين المرء وسعادته، ويصرفه عن التفكير في عاقبة أمره اقتضت الحكمة الإلهية أن يرسل الله لعباده رسلًا منهم يبصرونهم بها، ويحذرونهم منها، ويخوفونهم عاقبة الركون إليها، ويدعونهم إلىٰ ربهم الذي تشهد بوجوده وربوبيته فطرهم ووجداناتهم فضلًا عن آياته الكونية الماثلة لأعينهم والتي تغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم وتملأ أسماعهم وأبصارهم، ما بين مضيئة مشرقة، ومظلمة دامسة، وجامدة شامخة، ومتحركة متلاطمة، تملأ القلب روعة وجلالًا، والعين بهجةً وجمالًا.

بعث الله رسله إلىٰ عباده يدعونهم إليه، ويذكرونهم بنعمه لديه، وإحسانه إليهم، مبينين لهم عن ربهم ما يحتاجون إليه في سعادتهم الدنيوية والأخروية، قائلين لهم: اعبدوا الله وحده لا إله إلا هو، ولا يستحق العبادة سواه، ضاربين لهم الأمثال، مالئين أسماعهم بالمواعظ، مجلين لهم العبر في أجلىٰ مظاهرها، مطلعين عليهم شمس الحجج في رابعة نهارها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ

بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[النساء: ١٦٥].

الدعاة قسمان: قسم يدعو إلىٰ الرحمن، وقسم يدعو إلىٰ الشيطان.

فدعاة الرحمن هم أنبياء الله ورسله وأولياؤه الصالحون.

والدعاة إلىٰ الشيطان هم الجهلة الضالون الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ينبغي أن نزيدك بيانًا، وننعت لك كل قسم حتىٰ كأنك تراه؛ لعل الله أن ينير بصيرتك ويجعلك من الداعين والمرشدين إلىٰ سبيله:

الدعاة إلىٰ الله قوم عرفوا أنفسهم أنهم عبيد لربهم فآمنوا به وأحبوه وعظموه، وعرفوا أنه هو المستحق للعبادة، ورأوا كثيرًا من إخوانهم في الإنسانية غارقًا في بحر الهوىٰ والضلال، يخضع لغير الله ويذل لسواه، فخلعوا ثياب رفاهيتهم عنهم، وألقوا بأنفسهم في تلك الأمواج المتلاطمة لينتشلوا أولئك الغرقىٰ وقد مدوا إليهم حبل النجاة، فمنهم من اعتصم به فنجا، ومنهم من أبىٰ فكان من الهالكين.

جاءوا إلىٰ عبدة القبور حيث يذبحون عندها ويدعون أصحابها وينذرون لهم ويهتفون باسمهم في الشدة والرخاء، فقالوا لهم: مهلًا مهلًا: كيف تدعون من لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنكم شيئًا؟ أما سمعتم قول الله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾[الأعراف: ٥٥].

وقوله جل جلاله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾[غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾[البقرة: ١٨٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[الأعراف:١٩٤].

وهذا تهكم بالداعين غير الله تعالىٰ، وقد نهىٰ تعالىٰ عن دعاء غيره، فقال: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦].

ثم إن ذبحكم ونذركم لأصحاب القبور عبادة أيضًا لا تنبغي إلا لله الذي خلقكم ورزقكم، فهو سبحانه أحق بأن يكون هذا كله لوجهه تعالىٰ، يا قوم إن الله الذي خلقكم ورزقكم هو المستحق لعبادتكم، فادعوه وحده وتوكلوا عليه وحده، وخافوه ولا تخافوا غيره، الله هو الذي يجيب دعاء المضطر منكم إذا دعاه ويكشف السوء ويقضي لكم جميع حاجاتكم؛ لأنه حي يسمع ويبصر ويعلم، وهو علىٰ كل شيء قدير.

أما الذين تدعونهم فليسوا بأحياء ولا يسمعون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[فاطر: ١٤].

يا قومنا، أرأيتم لو كان لأحدكم عبد أو خادم وكلفه أن يعمل في حديقته أو مزرعته، وتكفل له بطعامه وكسوته وكل ما يحتاجه في معاشه، ووعده أجرًا جزيلًا إن هو أحسن الخدمة ونصح لسيده في المهنة، ثم ذهب هذا الخادم يعمل في مزرعة عدو سيده وهو لم يزل في نعمة السيد متقلبًا، وفي كنف إحسانه مقيمًا، ماذا تحكمون علىٰ ذلك الخادم؟ وماذا يستحق عندكم من العقاب؟

لا شك أنكم تقولون إنه يستحق التأديب والتعذيب.

فهذا مثل المشرك ... كلفه الله تعالىٰ بعبادته وتكفل له برزقه فذهب يعبد الشيطان ويطيعه ويعصي ربه ويكفر نعمته ويجحد إحسانه.

هكذا وبمثله يدعو الدعاة إلىٰ الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

الدعوة إلىٰ الله سبيل الفلاح ومفتاح النجاح، وباب العز وأصل الاستقلال والحرية، وأشرف ما تُنْفَقُ فيه النفوسُ والأموالُ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

فمن أقام هذه الدعوة وبذل فيها نفسه وماله عاش عزيزًا ومات شريفًا: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

فاستمدوها أيها المسلمون من ربكم، وادعوا إليه من تنكب عن سبيل الاستقامة.

إن المسلمين لما تركوا الدعوة إلىٰ الله وانصرفوا إلىٰ شهواتهم مكن الله منهم عدوهم فأذلهم واستباح أموالهم وأعراضهم، وسامهم كما تسام البهائم العجماوات؛ وذلك جزاء من تشبه بالبهائم في اتباع الشهوات، وعصىٰ رب الأرض والسموات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠].

ولا عجب أن يسلط الله تعالىٰ علىٰ المسلمين من يذلهم ويستعبدهم لما تركوا الدعوة إلىٰ الله والعمل الصالح، فقد سلط الكفار المشركين علىٰ من كانوا أبر منهم قلوبًا وأفضل إيمانًا وأعظم شجاعة وهم مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فأوقعوا فيهم القتل والذبح، حتىٰ بقروا بطن حمزة عم رسول الله ﷺ، وما ذلك إلا لأنهم خالفوا أمرًا واحدًا من أوامر رسول الله ﷺ حيث قال لهم: «**لا تبرحوا أماكنكم غَلَبْنَا أم غُلِبْنَا**»[1]. فغلبوا المشركين أولًا، ثم تركوا أماكنهم يجمعون الغنائم، فلما فعلوا ذلك انقلب عليهم المشركون ثانية وكان ما كان، فكيف بمن خالفوا الدين كله، أصولًا وفروعًا، وفعلوا جميع المنهيات وعصوا جميع الأوامر حتىٰ ما كان منها متعلقًا بنظام الدنيا والسيادة فيها؟!

وإن من أعظم المصائب، وأشد الكوارث نسيان الغياث الحق عند حلول الخطوب وفجاءة النقم، وأذل من الذل أن تطلب الحرية ممن عزه في إذلالك، وسعادته في إشقائك.

إن المسلمين لا يحيون حياة طيبة، ولا ينالون العزة والسيادة إلا بأن يدعوا أنفسهم أولًا إلىٰ الله، فإذا أفردوه بالإلهية وأبوا أن يكونوا لغيره عبيدًا، وتواصوا علىٰ ذلك وصبروا لم يلبثوا عشية أو ضحاها حتىٰ يحيا منهم من حي عزيزًا، ويموت منهم من يموت شهيدًا شريفًا - إن شاء الله تعالىٰ -.

(١) ينظر «سيرة ابن هشام» (٢/ ٧٧).

الدعوة إلى الله تعالى
كيف تكون؟ وعلى أيِّ أساس تقوم[١]

إن الدعوة إلىٰ الله من أسهل الأمور وأشقها علىٰ النفوس، فلذا ينبغي أن نبين كيف تكون.

ووجه المشقة فيها ما يلاقيه الداعي من أذىٰ المدعوين، واستهدافه لتقولاتهم ومعاداتهم، واحتياجه إلىٰ معرفة طبائع النفوس وما يليق بها، والطرق الحكيمة التي يسلكها لبلوغ غايته وجذب الناس إلىٰ دعوته، وإنقاذهم من مصايد الشيطان، وشفائهم من أمراض الشهوات وعلل الشبهات، واستعمال الرفق في موضعه والبرهان عند أهله.

وأما وجه السهولة فيها فلأنها تتضمن ذكر الله تعالىٰ، وبذكره تطمئن القلوب، وموعود عليها بالنصر في غير ما آية من كلام الله تعالىٰ وغير ما حديث من سنة رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١] الآية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] الآية ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]. الآية، ولأن الداعي لله تعالىٰ يجد من الآيات والأدلة والبراهين علىٰ صحة الدعوة ما لم يجده داع لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الثالث - ٣٠/ ٣/ ١٣٤٧ هـ.

ففـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل علـــىٰ أنـــه واحـــد

ولأن الفِطَر مستقر فيها معرفة الله تعالىٰ بآياته ونعمه.

أما كيف تكون الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ فإنك تجده في القرآن الحكيم وسيرة النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، تجده في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٣، ٣٥]، ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، - ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وفي آية ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٦١].

وفي قول الله تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٣١] الآية، ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ [النمل: ٦٩] الآية، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٤، ٢٦] ... إلخ.

هذا تعليم الله لرسوله في موضع الرفق والملاينة.

وقوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟

فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال:٣٨]، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[آل عمران:١٢] في موضع المخاشنة والوعيد والتهديد.

ولا ريب أن من الناس من ينقاد بالرفق ويسترقه اللين ويعطفه العتاب، ومنهم من قست قلوبهم وغلظت طباعهم فلا يؤثر فيهم إلا الكلام الشديد كالتهديد والوعيد، أو لمعان الحديد وقطع الوريد، علىٰ أن الداعي إلىٰ الله لا يمتشق حسامًا ولا يُكْرِه إنسانًا، بل يحبب الله إلىٰ عباده ويعرفهم به ويقودهم بالحسنىٰ إليه، وإنما يضطر إلىٰ امتشاق الحسام وإشراع الرمح والسنان إذا صودر في دعوته واعتدىٰ علىٰ دينه ووقفت شياطين الإنس تحول بينه وبين هداية عباد الله إلىٰ الله، وإقامة ما أمر الله به من العدل والإحسان، وإزالة ما نهىٰ عنه من الظلم والعدوان وعبادة الأوثان، مما يجعل الإنسان الذي كرمَه الله أخس أنواع الحيوان.

ولقد لبث رسول الله ﷺ في مكة بين قومه ثلاث عشرة سنة يدعوهم باللين والرفق وهم يؤذونه ويؤذون أصحابه بما قدروا عليه حتىٰ هاجروا غير مرة، ولم يَكْفِ المشركون ذلك حتىٰ بيتوا قتل النبي ﷺ آخر الأمر، ولولا أن الله أمره بالهجرة منها لبقي صابرًا محتسبًا.

فالدعوة إلىٰ الله تكون بالرفق واللين ومقابلة السيئة بالحسنة، والإعراض عن الجاهلين وتحمل أذاهم بالصبر الجميل والدعاء لهم بالهداية إلىٰ أقوم سبيل، ولولا أن الرفق واللين في الدعوة من أسباب نجاحها وأنهما من الحكمة المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] لما أمر

موسىٰ عليه السلام أن يقول لفرعون حين أمره بالتوجه إليه ودعوته إلىٰ الله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤] فالقول باللين يشرح الصدر، ويفسح للنفس مجالًا للتفكر، ويرغبها في القبول.

وأما الشدة فهي مدعاة للتنفير والإعراض عن الداعي، وسبب في صرفه عن الدعوة والاشتغال بما أثار من شرّ كان كامنًا وفتنة كانت نائمة، ومضاعفة مرض كان علىٰ وشك الشفاء لو صادف طبيبًا ماهرًا وسائسًا حكيمًا.

فينبغي للداعي إلىٰ الله أن يكون أوسع حلمًا ممن يدعوه، وأصبر علىٰ أذىٰ يلاقيه، وأن يكون سخيًّا في الحق، موطنًا نفسه علىٰ الشهادة في سبيل الله، بادئًا من يدعوهم بما هو الأهم، ويجب أن يكون عاملًا بما يدعو إليه وإلا كان عمله المخالف لقوله حجةً عليه ومناقضًا لما يدعو إليه.

إن الدعوة إلىٰ الله لا تقوم إلا علىٰ أساس التوحيد وإخلاص الداعي لله، فأما إذا كان غير مخلص لم يثمر عمله، وإن أثمر في الدنيا لم يكن له عليه ثواب في الآخرة.

أركان الدعوة إلى الله(١)

الدعوة إلىٰ الله تستلزم جهادًا، وصبرًا من الداعي، وحلمًا ورفقًا بالمدعو، وهذه أركان الدعوة، فإذا جاهد ولم يصبر لم يُنصر، وإن صبر ولم يكن حليمًا رفيقًا بالناس لم يظفر بالنجاح، وربما كان ضرره أكثر من نفعه، وتنفيره أكثر من تأليفه، وإفساده أكبر من إصلاحه.

ويشترط في الداعي إلىٰ الله أن يكون علىٰ بصيرة مما يدعو إليه عاملًا به، كما يفهم من قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، ومن قوله عز من قائل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله تعالىٰ في قصة شعيب حاكيًا عنه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله تعالىٰ عن نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقوله عز وجل لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]؛ أي: أول المنقادين المطيعين لما أدعوكم إليه.

فأما إذا كان الداعي علىٰ غير بصيرة فيما يدعو إليه فقد ضل وأضل. وكذلك إذا خالف إلىٰ ما ينهي عنه، أي: تخلف عن رُفقة المطيعين وخالفهم ما نهاهم عنه، وقد قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢].

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الخامس - ١/ ٥/ ١٣٤٧ هـ.

فالقائل قولًا لا تصدقه فعاله مخذول مرذول ممقوت عند الله وعند الناس، معدود في زمرة المنافقين المرائين، ومن الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨].

وإنك لتجد كثيرًا من الناس كذلك، وكما قال الشاعر:

إذا نـدبوا للقـول قـالوا فأحـسنوا ولكن حسن القـول خالفـه الفعـل

وقال تعالىٰ في المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] الآيات.

وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤]

ومعنىٰ ذلك - والله أعلم - أن قوله مخالف لما في قلبه، وأنه إذا تكلم في الدنيا أي في وصفها وشأنها أعجبك كلامه لوصفه إياها بما يطابق الحقيقة من فنائها وعدم بقائها، وأنها كعجوز شمطاء تزينت للناس بمتاعها وزخرفتها، وبدت لهم في ثياب الفتيات تغرهم بالآمال وتخدعهم بمزيف الجمال، وهو ألد الخصام، أي: شديد الخصومة في الباطل، إن عرض له منها عارض أو بدت له فيها أية منفعة، فتراه مثلًا يؤول الآيات لأجل حطامها، ويضعف الأحاديث طمعًا في وصلها، ويحل الشيء عامًا ويحرمه عامًا، وإن وصف لك المتقين خِلْته منهم، وإن ذم لك المنافقين حسبته من أشد الناس عداوة لهم، ولكنك إذا بلوت أخباره، ورأيت فعاله، عجبت من أحواله، ومخالفة أفعاله لأقواله، فمثل هذا لا يصلح للدعوة إلىٰ الله ولا يكون من أهلها، ولكنه إذا وجد في هذا الزمان يعد من أئمة الإصلاح، ويعطىٰ أضخم ألقاب العلم والفضل، وأشرف أسماء

السيادة والنبل والذكاء والعقل!!.

حق علىٰ علماء المسلمين في كل بلد وقطر أن يقوموا متضافرين متناصحين داعين إلىٰ الله، ناعين علىٰ أهل البدع الشركية بدعهم، مقيمين عليهم الحجة، رافعين لهم لواء السنة، فإنهم متىٰ رأوا ذلك اللواء في يد ثقاة الأمة انضووا إليه ولحقوا به، وكانوا تحت ظله فكانوا من المصلحين.

فليستعذ العلماء العارفون بالتوحيد من الجبن وحب الدنيا والحرص عليها، ويقيموا علىٰ قدم وساق بادئين بما هو الأهم كما في حديث معاذ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أجابوك لذلك فأخبرهم أن عليهم خمس صلوات**» الحديث [١].

فواجب علىٰ العلماء العارفين معنىٰ الشهادتين أن يدعوا الناس إليهما حتىٰ يحققوا العمل بهما إيمانًا بالله ورسوله وكفرًا بالطواغيت.. واجب علىٰ العلماء أن يعملوا أمام العوام بما يعلمون ليكونوا لهم خير قدوة يفهمون بها الكتاب والسنة فهمًا عمليًّا، كما كان النبي ﷺ يعلم الناس بالعمل. والأحاديث الدالة علىٰ ذلك في «الصحيحين» وغيرهما، وكأن علماء التربية في هذا العصر وقفوا علىٰ كيفية تعليم الرسول ﷺ فاقتدوا به وأصبحوا .. لا يدخل مدرس المادة من العلم إلا أخذ معه عُدة تمثيلية وتصويرية، إن لم يمكنه عمل الشيء بنفسه أو إيجاده تحت حواس المتعلمين، كما في تعليم الكيمياء والطبيعة وغيرها من العلوم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٥٨، ٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

وبعدُ، فمتىٰ يعود المسلمون إلىٰ دينهم ويعملون بكتاب ربهم وسنة نبيهم، ليعود إليهم عزهم وسيادتهم وملكهم؟

سؤال يخالج كل ذي ضمير حي وعقل سليم.

والجواب عليه: إذا وجد دعاة يدعونهم إلىٰ الله بالرفق، ويبينون لهم خطأهم في العقائد ويبصرونهم بالعواقب، ويضربون لهم الأمثال، ويتلون عليهم قصص الأمم الغابرة في القرآن، ويخطبون في المساجد والمجتمعات. وأنىٰ لنا بأولئك الدعاة الذين توفرت فيهم شروط الدعوة وأنابوا إلىٰ الله وأخلصوا له؟

أقول - والحزن ملء فؤادي -: إنهم قليلون، بل هم أقل من القليل.

نسأل الله أن يكثرهم في المسلمين، وأن يلهم الأغنياء والملوك والأمراء البذل في هذا السبيل، وإعداد طائفة من الدعاة والمرشدين.

كما أسأله أن يوفقهم للأخذ بأحكام الشريعة الغراء، ويقيموا الحدود، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، والسلام.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]

من الدعوة إلىٰ الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وقال تعالىٰ في وصف المؤمنين: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال تعالىٰ عن لقمان وابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]، وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم[٢] «**وأمر بالمعروف ونهيٌ عن المنكر صدقة**»، وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي[٣]، «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن علىٰ يد الظالم، ولتأطرنه علىٰ الحق أطرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم علىٰ بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم**»؛ أي: بني إسرائيل المذكورين أول الحديث.

وفي الصحيح لمسلم و«سنن النسائي»[٤] وغيرهما عن النبي ﷺ: «إن

---

(١) مجلة الإصلاح - العددان السابع والثامن - ١٥ / ٦/ ١٣٤٧ هـ.

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٠، ١٠٠٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٣٣٦، ٤٣٣٧)، والترمذي (٢١٦٩)، من حديث ابن مسعود وحذيفة رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (٥٥)، والنسائي (٤٢٠٨)، وأبو داود (٤٩٤٤)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

الدين النصيحة» قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**». والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة.

والمقصود بالمعروف هنا المعروف من الشرع، وبالمنكر ما ينكره الشرع، وإلا فقد يكون للناس عادات قبيحة وبدع سيئة هي المعروف عندهم، حتىٰ لو أنكرها عليهم عالم بالشرع لكفروه.

مثال ذلك: دعاء العوام وأشباه العوام أصحاب القبور، ونذرهم لها وطوافهم حولها زاعمين أن ذلك توسل إلىٰ الله تعالىٰ، وهو شرك محض، فمن أنكر عليهم، قالوا: إنه ينكر الكرامات ويبغض الأولياء وتقوَّلوا عليه أكثر من ذلك.

وقد أضاع المسلمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتىٰ تغلب أولو الأهواء والشهوات المفسدون في الأرض، ورفعوا عقيرتهم بالدعوة إلىٰ شهواتهم الشيطانية بدعوىٰ المدنية والتجديد، فسموا تبرج النساء حرية وزينة وجمالًا، والحياء والحشمة والقرار في بيوتهن حبسًا وتأخرًا، والقائم بذلك من الرجال علىٰ نسائه متوحشًا ومستبدًّا وجاهلًا، إلىٰ غير ذلك من الألقاب.

وما دعوا إلىٰ شهواتهم هذه الدعوة الخبيثة إلا في نومة أهل الحق واستكانتهم وغفلتهم عنه.

ومن الناس من يقوم بالأمر بالمعروف، فإذا أوذي في الله ترك، وجعل فتنة الناس كعذاب الله.

ومنهم من يأمر بالشدة، فينفر الناس من الدين، ويكون ضرره أكثر من نفعه.

ومنهم من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهىٰ عن المنكر ويأتيه، كما رأيت ذلك في بعض البلاد؛ فترىٰ أحدهم مثلًا ينهىٰ عن المسكرات وهو شيخ الحشاشين ونديم السكارىٰ.

وإنما يجب أن يكون المتصدر للأمر بالمعروف عالمًا بما يأمر، عالمًا بما ينهىٰ، عاملًا بما يأمر، تاركًا لما ينهىٰ عنه رفيقًا فيما يأمر، رفيقًا فيما ينهىٰ، متحملًا لكل ما يقع عليه من الأذىٰ صابرًا محتسبًا.

ولا يشترط في الآمر أن يكون عالمًا بكل مسألة في الدين، ولا بكل علم من العلوم.

نعم، ينبغي أن تؤلف هيئات من أهل العلم العاملين الغيورين علىٰ الدين والفضيلة ويجولون في كل مجتمع وفي كل مسجد بالوعظ والخطابة بالقرآن والسنة.

وعلىٰ العلماء أن ينكروا كل محرم شرعًا، وأن يبيعوا أنفسهم في هذا السبيل بيع سماح، وإلا فلْيَدَعُوا هذا اللقب الشريف (العلماء) لغيرهم، وليعلموا أنهم لن يحترموا به إذا لم يحققوا معناه في أنفسهم، وتشهد له آثاره فيهم من الغيرة وعزة النفس والزهد في الدنيا.

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما[1]

علىٰ أهل العلم أن يعلموا أنهم عبيد الله، وأنهم ما خلقوا إلا لعبادته

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٧١) من قول علي بن عبد العزيز الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ.

والغيرة علىٰ دينه وإعزاز كلمته، فإذا علموا ذلك وباعوا نفوسهم في هذا السبيل عزوا في هذه الحياة وكانوا يوم القيامة من الفائزين.

ليس كل من لبس عمامة وجُبة صار عالمًا، إنما العلماء هم الذين يخشون الله ويخافونه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ليس من العلماء من يشكك في الدين وينكر ما صح من أحاديث سيد المرسلين، كأحاديث سؤال القبر، ولا من ينكر شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة، كالاسترقاق المشروع، أو حقيقة الشياطين، أو نحو ذلك، فأمثال هؤلاء يستحقون التأديب أو دخول مستشفىٰ المجاذيب ويسأل لهم الشفاء، لا أن يتربعوا علىٰ كراسي التدريس، وتجري عليهم مرتبات من أوقاف المسلمين.

ينبغي أن يكون في كل بلد إسلامي هيئة تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، ولا تعول علىٰ الأغنياء والأمراء، ولا تخاف الأذىٰ من الناس أو المخلوقات المستهزئة بأمر الدين أو المعادية له، فإن يد الله علىٰ الجماعة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

إن الذي يرىٰ المنكر ويسكت عليه ولا ينكره إنما هو شيطان أخرس، بل هو شريك الفاعل، وقد بين الحديث الذي رواه مسلم [١] عن النبي ﷺ أن إنكار المنكر علىٰ ثلاث درجات: أعلاها الإنكار باليد، وأوسطها الإنكار باللسان، وأدناها الإنكار بالقلب، وليس وراء ذلك مثقال حبة خردل من إيمان، قال ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

«من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

ولولا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يضاد النفوس الشريرة، وأن الآمر يناله منها الأذىٰ بكل ما تقدر عليه ما عقبت وصية لقمان لابنه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقد لعن الذين كفروا من بني إسرائيل علىٰ لسان داود وعيسىٰ ابن مريم بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله وعدم تناهيهم عن منكر يفعلونه، وقيل لهم: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، ولا ريب أن تلك اللعنة وهذا الذم ليس خاصًّا بهم، بل هو لهم ولغيرهم من كل من يتحقق فيه وصفهم ويكون مثلهم فيما ذُمُّوا من أجله ولُعِنُوا بسببه.

ونحن إذا حللنا نفسية علماء اليوم الساكتين علىٰ الشرك والزنا والخمر والربا وسب الدين وتبرج النساء، وغير ذلك من الموبقات التي تخجل كل حر عاقل فضلًا عن متدين، لرأينا أن سبب ذلك شيئان:

أحدهما: الجهل بالله وأسمائه وصفاته وأمره وشرعه.

والثاني: حبهم الدنيا وعدم إيمانهم بالآخرة.

فإذا سألتهم ما أسكتكم عن إنكار المنكر وأنتم مغمورون فيه، وهو واقع بين سمعكم وبصركم؟ أما لكم غيرة لله علىٰ دينه؟ ألستم الذين يقال لهم: العلماء؟! اعتلوا بعلل واهية، واعتذروا بأعذار ساقطة.

فمنهم من يقول: الحكومة هي التي في يدها القوة، وهي التي أباحت هذا المنكر ولا قدرة لنا بالوقوف في وجهها ومنعها.

ومنهم من يقول: الأغنياء شحوا بأموالهم وأنفقوها علىٰ شهواتهم وهذا الأمر لا يقوم إلا بالمال. ومنهم من يقول غير ذلك علىٰ هذا النحو، والحقيقة كما أخبرتك آنفًا.

ولا عذر لأحد بالسكوت اتكالًا علىٰ فرد واحد ينكر في أمة كلها أو جلها مخالف أمر الله مستحق لعقوبته.

وإنما فرض الكفاية الذي إذا قام به البعض سقط عن الباقين يقال عند اتساق الأمر وحصول الكفاية بذلك الفرد أو الأفراد، فأما إذا لم يكف مائة ولا ألف فالواجب أن يقوم من تحصل به الكفاية وينقمع به المنكر وأهله.

والله الهادي إلىٰ سواء السبيل.

قال الله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] [الذاريات:٥٦]

أيها الإنسان العاقل، بربك أخبرني بعد أن تفكر وتنظر، ولو قليلًا، في ملكوت السموات والأرض، أناشدك الله الذي خلق السموات والأرض والذي تؤمن بوجوده، لا أخاطب غيرك ممن يجحده جل وعلا، أليس قد خلق الشمس والقمر وسخر ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه لخدمتك ومنفعتك؟ فالشمس تضيء لك بالنهار فتبصر السبل وتميز بين الأشياء، وهي في الوقت نفسه تنضج لك الفواكه وتصلح لك سائر النبات، وتدفع عنا جيوش البرد والرطوبة التي لو تركت لهجمت علينا وتركتنا حصيدًا خامدين. وانظر إلىٰ القمر ومنافعه وتأثيره أيضًا والكواكب، وإلىٰ ذلك النظام البديع، ثم تأمل قوله تعالىٰ: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[النحل: ٨] الآية.

فإذا كان كل شيء في السموات والأرض مسخر لك أيها الإنسان ومخلوق لخدمتك ومنافعك فلماذا إذًا أنت مخلوق؟ وما منفعتك؟ أترىٰ مخلوقًا أفضل منك، وقد أخبر الله أنك مسخر له ومخلوق لطاعته؟

كلا؛ بل أنت أيها الإنسان سيد المخلوقات، أنت الذي شرفك الله بعبادته والقرب منه، فجعل كل شيء يخدمك، وجعل كل شيء مطيعًا لك، وطلب منك أن تطيعه، وأعطاك اختيارًا وقدرة وإرادة وعقلًا تميز به، كي تكون حرًّا فيما تأتي وما تذر، وخصك بخطابه ومناجاته. أفليس من الخسة والدناءة أن

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الحادي عشر - ١ / ٨/ ١٣٤٧ هـ.

تذهب بعد ذلك التكريم والتشريف تعبد غيره، وتطيع سواه، وتخضع لقانون بشر مثلك، تقدسه وتحكم به علىٰ غيرك؟ بأي حق استحق هذا المخلوق خضوعك له والنزول علىٰ حكمه من دون الذي خلقك وسوَّاك وجعل لك من لدنه قانونًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ إن هذا المخلوق جاهل بمصالح نفسه فضلًا عن مصالح غيره من بني جنسه، فضلًا عن مصالح العالم كله علىٰ اختلاف طباعه وأجناسه ولهجاته وعاداته، أهذا أحق بك أم الله العليم الحكيم الذي خلق كل شيء ، وعلم كل شيء، الذي قدر فهدىٰ،الذي لا تخفىٰ عليه خافية، والذي سوَّاك وخلقك في أحسن تقويم، ومكنك من كل شيء، وجعلك خليفةً في أرضه؟

حقًّا؛ إنك أيها الإنسان ظالم لنفسك جاهل بمصالحها. أيها الإنسان، فكر في نفسك فأنت أحق من فكر، أأنت مؤمن بالله واليوم الآخر أم أنت في ريب؟ وأخبرني من ذلك، فإن كنت مؤمنًا فما لك لا تعمل للآخرة، وما لك لا تطيع من آمنت به؟

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وإن كنت غير مؤمن بالله تعالىٰ ولا مصدق بوجوده عَرَّفْنَاك به وأقمنا لك الأدلة من نفسك علىٰ وجوده.

انظر بعين عقلك، هل ترىٰ في هذه الدنيا فعلًا بغير فاعل؟ وانظر وتفكر ثم أخبر واسأل المنكرين، أخلقوا من غير شيء، أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض؟ فإن لم يجيبوا وأصروا علىٰ الإنكار، أجابت عنهم المخلوقات، ما خَلقنَا إلا الله.

وإن من أدل الأدلة أن ترىٰ ذا ذكاء وعلوم دنيوية ومعارف كونية ومنطق فصيح

وشكل مليح ينكر وجود ربه ويخاصم فيه وجدانه المعترف به ويخاصم المؤمنين.

فهذا دليل علىٰ أن الله موجود وأنه حليم وعدل وحكيم.

أما دليل وجوده فقد حدثناك به، وهو أن هذا المنكر بين أحد أمرين، لا ثالث لهما:

فإما أن يكون مخلوقًا من غير خالق وحادثًا من غير محدث، وهذا محال.

وإما أن يكون هو الذي خلق نفسه، وهذا أبعد في الإحالة.

ولا سبيل له إلا أن يقول: إنني مخلوق، والمخلوق مفعول، فلا بد له من خالق؛ إذ لا يوجد مفعول بلا فاعل.

وإذا أثبت أن للمخلوق خالقًا انتقلنا إلىٰ تعرف صفاته، فترىٰ القدرة والعلم، والحكمة والحلم، والرحمة والعدل في لوح هذه المخلوقات، كلما أمعنت النظر فيها وتركت المجاحدة.

فمن العدل أن الله تعالىٰ يعذب الأمم العاصية، ويمتع المطيعة علىٰ قدر طاعتها وسيرها في سبيل النظام الكوني المسمىٰ: سنة الله في القرآن.

وهذا الخسف والمسخ والحروب التي تراها أو تسمع بها لم تكن إلا لخروج الناس عن الصراط السوي والأوامر الإلهية؛ الكونية والشرعية..

وإذا رأيت أمة عاصية في نعمة فاعلم أنها تعيش في سعة الحلم إلىٰ أجل مسمىٰ. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، كما قال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٣]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا

وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[الحج:٤٨].

وانظر قدرة الله في تلك البحار الزاخرة والجبال الشاهقة والشمس الباهرة والقمر الزاهر والنجوم الطوالع، التي يُهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر.

ثم انظر تلك القدرة القاهرة عند احتضار ملك من ملوك الدنيا، حيث يسلم نفسه من بين جنبيه وحوله نطس الأطباء والأهل والأصدقاء بين العَدَدِ والعدد والقوىٰ المختلفة من أساطيل في البحر ماخرة، وطيارات في الهواء سابحة، ومدافع وقنابل ودبابات وغواصات وقواد وضباط وخيل وركاب. وكل ذلك لم يغن عنه شيئًا ولم يدفع عنه تلفًا.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الواقعة: ٨٣، ٨٧].

وأما الرحمة فانظرها في الأمهات حيث ترىٰ الواحدة منهن ترضع أبناءها وتحنو عليهم وتدافع دونهم. وليس هذا في بني آدم فحسب، بل في كل نوع من أنواع الحيوانات. وتجد مثله إذا دققت النظر في النباتات.

وهكذا إذا أمعنت النظر في كتاب الكون، وقلبت أية صحيفة منه ظهرت لك صفات الباري - جل وعلا - بآثارها واضحة ناطقة بأن الله واحد.

وفي كل شيء له آية تدل علىٰ أنه واحد

وأن له الحمد في السموات والأرض، وأنه لا شريك له في ملكه وهو المستحق للعبادة والحب كله، وأن العبودية لا تليق إلا له جل شأنه.

أيها الداعي غير الله[١]

ألم تسمع قول ربك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]؟ تأمل هذه الآية جيدًا، أجل فكّر فيها وتدبرها، وحاسب نفسك إذ تقول: «يا الله يا بدوي»، أو تقول: «يا رسول الله أغثني».

فإنك دعوت في الأولىٰ مع الله أحمد البدوي، كأن الله لم يكفك فدعوت معه غيره، وكأنك لم تسمع قول الله تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقوله تعالىٰ علىٰ سبيل التبكيت وإظهار أن المدعو من غير الله عاجز عن نفع الداعي أو ضره: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

ودعوت في الثانية رسول الله ﷺ وهو الذي أمره ربه أن يقول: ﴿لَآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ... الآية، والذي قال: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

جاء إلىٰ هذه الأقطار المقدسة عظيم من علماء قطر من الأقطار المجاورة المعروفة بمعاهدها العلمية، وصلتها الكبيرة بالإسلام، وحضر خطبة في الحرم النبوي، وكان الخطيب يقول للناس: ادعوا ربكم وحده، ولا تدعوا سواه أحدًا، أو نحو ذلك، فإن ربكم يغضب إذا دعوتم غيره، ولو كان ذلك الغير هو رسول الله ﷺ، فغضب ذلك الشيخ من هذا القول الحق الذي لا يُبقي علىٰ ما عنده من

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الثاني عشر - ١٥/ ٨/ ١٣٤٧هـ.

عوائد شب عليها وشاب فيها واستطاع من ورائها أن يكون شيخ سدنة[١] أكبر وثن في ذلك القطر، يجبي إليه من المال الباطل والسُّحت ما أصبح به من الأغنياء من تراث الدنيا وحطامها القليل.

أخذت الشيخ الحمية الجاهلية، وتقطع قلبه وارتعدت فرائصه إذ صك سمعه قول الداعي الحق: أخلصوا لله العبادة، ولا تشركوا معه أحدًا، فلا تدعوا البدوي ولا غيره!!

وإذا انصرف الناس عن دعاء البدوي وغيره، وانقطع بذلك مورد الصناديق من النذور الشركية، فمن أين يثري أولئك الضخام الأجسام؟! كَبُرَ علىٰ الشيخ ذلك جدًّا، وأخذه الحال وانجذب وضرب بلسان العفاريت، وقام من وسط الجمهور ميممًا الحجرة الشريفة وهو يقول في حركة تشنجية وأنكر الأصوات: يا رسول الله، أنا بك مستجير.

فهل فهم أمثال هذا - الذي يسمونه عالمًا - شيئًا من بينات آيات القرآن الكريم؟ وهل علم معنىٰ لا إله إلا الله؟ لا والله!! وإذا كان أمثاله من أصحاب تلك الأبراج علىٰ الرءوس المنتسبين للعلم، بل الذين يعدون من أكبر العلماء يعملون تلك الأعمال الشنيعة ويناقضون القرآن، ويحاربون الله هذه المحاربة، ويدعون غير الله، ويزعمون أنه ليس بشرك، بل يقولون كما قال سلفهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فكيف بالعوام الذين لم يقرءوا قرآنًا ولا سنة، ولا تعلموا نحوًا ولا صرفًا ولا بلاغة ولا أصولًا ولا تفسيرًا؟!

---

(١) سَدَنَ سدْنًا وسَدَانَةً: خدم الكعبة أو بيت الصنم وعمل الحجابة فهو سادن. القاموس المحيط، تاج العروس (سدن).

إن هؤلاء الجهلة بدين الإسلام قد غشوا العوام بزيهم بعد أن اغتروا بأنفسهم وبعد أن زين لهم الشيطان سوء أعمالهم. وصدق الذي يقول:

وهل أفسد الدين إلا الملو ك وأحبار سوء ورهبانها(١)

فإن لم يتوبوا عن شركهم ويراجعوا أنفسهم ويتعلموا من جديد حتىٰ يعرفوا معنىٰ لا إله إلا الله وإلا فبشرهم بعذاب أليم خالدين فيه أبدًا، وكان ذلك علىٰ الله يسيرًا.

يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلىٰ قلبه، تعالوا نسمعكم قول الله تعالىٰ، تعالوا نتل عليكم كلام ربكم، فإن كنتم تريدون الإيمان فآمنوا ولا تتكبروا عن قبول الحق، وإلا فلا تغشوا المسلمين.

يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾[الأحقاف:٥].

ويقول: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[يونس:١٠٦].

فليتأمل العاقل النبيه الحريص علىٰ الحق الناصح لنفسه مثل هذه الآيات في القرآن مع آيات الأمر بدعاء الله وحده كقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر: ٦٠].

وقال: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[الأعراف: ٥٥].

وقال: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[غافر: ٦٥].

---

(١) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٢١٣)، وابن أبي العز الحنفي في «شرح الطحاوية» (١/ ١٢٢)، عن ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ.

وليبحثوا عن معنىٰ كلمة «إله» علىٰ حدة، ومعنىٰ «لا» علىٰ حدة، ومعنىٰ «دون» و«غير» في الآيات الواردة فيها، ويتركوا التقليد والمنامات.

وليدعوا الله تعالىٰ وحده كما دعا النبي ﷺ: «**اللهم رب جبريل وميكائيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم**»[1] لعله يوفقهم ويهديهم، فإن الهدىٰ هدىٰ الله، ومن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن كلمة (إله) عند العرب تدل علىٰ كل ما يعبد بحق أو بباطل و(لا) نافية للجنس، ولما كان العرب المشركون يعبدون آلهة كثيرة يدعونها وينذرون لها وينحرون باسمها بعث الله رسوله محمدًا ﷺ بهذه الكلمة (لا إله إلا الله) يقول لهم: انفوا جميع الآلهة إلا الله وحده فأثبتوا له الإلهية، لأنه هو المستحق لعبادتكم إذ هو الذي خلقكم ورباكم وربىٰ جميع العالمين بنعمته.

وهكذا كان العرب يعرفون معناها؛ ولذا قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]. فكلمة (لا) نافية لجنس الآلهة وكلمة (إلا) مثبتة للإله الحق. فإذا قلت: (لا إله إلا الله)، فقد أقررت واعترفت بلسانك وعاهدت نفسك أن لا تتأله ولا تعبد بأنواع العبادة كلها أحدًا إلا الله، فإذا دعوت البدوي، أو الدسوقي، أو العباس، أو الجيلاني، أو الرفاعي، أو غيرهم مما ملأ كل الأقطار الإسلامية من أوثان، ما أنزل الله بها من سلطان – مثلًا – لكشف ضر، أو ذبحت له، أو نذرت،

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

كنت ناقضًا لكلمة التوحيد وناكثًا للعهد، وكنت كالذي توضأ ثم نقض وضوءه. أو بعبارة أظهر وأوضح كالذي اغتسل من الأدران، ثم جاء إلىٰ مجرىٰ بول وغائط وألقىٰ بنفسه فيه. أو بعبارة أخرىٰ، إذا قال: (لا إله إلا الله) كان كالذي ارتفع إلىٰ السماء وعلا فوق الجوزاء فإذا التفت عن الله ودعا غيره – ولو علىٰ زعمه أنه يقربه إلىٰ الله زلفىٰ وواسطة ووسيلة – ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

فمن لم يعرف معنىٰ (لا إله إلا الله) ويحققها علمًا وقولًا وعملًا لم تنفعه، ولو قالها طول الليل وطول النهار، وتحقيقها علمًا وقولًا وعملًا ليس بالأمر الهين.

ولذا كانت مفتاح الجنة، وكانت الأعمال المشروعة والأقوال أسنانها كما ورد في صحيح البخاري [١] إذ سئل أحدهم: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ فقال: «وما مفتاح إلا له أسنان ... الأثر».

ولكن كيف يتعلم العلم متكبر يعتقد أنه عالم ويعتقد جمهور الجهلة أنه عالم؟ وقد ورد في البخاري في باب (الحياء في العلم) وقال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر [٢].

فاتقوا الله يا من عليهم أعظم المسئوليات بتشبههم بالعلماء وجعلهم في مقام القيادة للناس وحققوا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، واعلموا أن دعاء غير الله، كائنًا من كان؛ ملكًا مقربًا أو نبيًّا مرسلًا أو وليًّا صالحًا

---

(١) أخرجه البخاري قبل (١٢٣٧) تعليقًا من قول وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ. ووصله في «تاريخه الكبير» (١/ ٩٥)، وابن حجر في «التغليق» (٢/ ٤٥٣، ٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاري قبل حديث (١٣٠) تعليقًا.

شرك أكبر لا يغفر إلا لمن تاب إلىٰ الله وعمل صالحًا، ولا تظنوا أن قول لا إله إلا الله من غير معرفة معناها والعمل بها ينفعكم في دنيا أو أخرىٰ.

ليست (لا إله إلا الله) لعقة علىٰ اللسان، وأن قائلها بدون قيام بحقها يستحق الجنان! لا والله، ولو صح ذلك لما جاهد أبو بكر رضي الله عنه مانعي الزكاة واستباح دماءهم وهم يقولونها. ولما قال الرسول ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة ...**»[1] الحديث ولاقتصر علىٰ النطق بها وارتضىٰ ذلك منهم دون الصلاة والزكاة.

لا تظنوا يا ذوي العمائم الكبيرة والجبب العريضة الطويلة أن شهادة مخلوق لكم - مهما كان عظيمًا - تنفعكم عند الله، أو تسعدكم في الدنيا وأنتم محرومون من علم الدنيا وعلم الآخرة، لا تظنوا أن دعواكم أو انتسابكم للعلم أو للإسلام يمحو الحقائق ويغير سنن الله في الكون! لا والله . وكيف تكونون علماء وهذه الأوثان تدعىٰ بين أظهركم ويُستغاث بها، ويجعلها الناس كافة آلهة مع الله وأنتم ما بين أسوة سيئة للعوام في ذلك، ومجاهدة من يرشدهم ويدعوهم إلىٰ الله، أو يعرف الحق ويسكت كاليهود؟

وكيف تكونون علماء المسلمين، والزنا والخمر والربا والحكم بغير ما أنزل الله علىٰ مرأىٰ ومسمع منكم ولا تنكرون ولا تغضبون، بل منكم من يشارك في هذه المنكرات، ويشهد الموالد وغيرها من أنواع الزور والباطل، وإذا نهاكم مشفق عليكم من لبس الحرير وأنتم في حرم الله وفي أداء عبادة الله تتبرمون

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتغضبون، أي أحدٍ من علماء السلف تقتدون به في الاستكبار عن استماع الحق واتباع الهدىٰ اتقوا الله ولا تكونوا كالذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[البقرة: ٢٠٤].

أخبرونا أيها الناس علىٰ أي حجة تعتمدون؟ وفي أي آية من الكتاب أو حديث عن رسول الله تجدون هذا، أوتظنون أن الله يرضىٰ عنكم بعد ذلك أو رسوله أو أحد من المؤمنين؟ ألم تعتبروا بما أوقع الله علىٰ الظالمين من ذل وخزي وخذلان وتسلط أعداء وسلب حقوق؟ فتعلموا يا قوم (لا إله إلا الله)، وحققوها بالقول والعمل، ولا تنقضوها بجهلكم وموالاة أعداء الدين، وكونوا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر: ١٨].

ارجعوا إلىٰ الله: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[الزمر: ٥٤].

استغفروه ولا تدعوا من دونه وليًّا ولا نبيًّا ولا ملكًا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الأحقاف: ٤].

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨].

هكذا يكون العمى[١]

يدعو الكثير من المسلمين غير الله من الأموات حتىٰ في أشد الكروب التي كان المشركون يخلصون فيها دعاءهم لله ويرجعون إليه ويستغيثون به، كما حكىٰ الله عنهم قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، ومسلمو هذا الزمان يدعون غير الله إذا ركبوا في الفلك، حتىٰ وهم متوجهون إلىٰ الحج، فإذا عبثت الريح بالفلك وماجت بها أمواج البحر سمعت من يقول منهم: يا سيدة زينب، ومن يقول: يا سيد يا بدوي، ومن يقول: يا جيلاني، ومن يقول: يا رفاعي، ومن يقول: يا سمان، ويرفعون أصواتهم بدعاء غير الله، ويذكر كل أهل قطر أسماء من يتألهون من الموتىٰ ولا يقولون: يا رب، إلا وهم مشركون به غيره، وسبحان الله وتعالىٰ عما يشركون، فإذا قيض الله مؤمنًا غيورًا علىٰ توحيد ربه، وقال لهم: ادعوا ربكم وحده، ولا تدعوا معه سواه غضبوا غضبًا شديدًا وسبوه وشتموه، وربما ضربوه، وعدوه كافرًا، وقالوا له: إنك تنكر كرامات الأولياء، فإذا أراد أن يفهمهم أن كرامات الأولياء لا تقتضي دعاءهم من دون الله، وأن الكرامات شيء والشرك شيء آخر ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وقام يجادل عنهم ذوو العمائم الكبيرة والأكمام الواسعة والأجسام الخشبية والعقول الحجرية: بأنهم ما دعوا في الحقيقة إلا الله، وأنهم يعلمون أن

---

(١) مجلة الإصلاح – العدد الرابع عشر – ١٥/ ٩/ ١٣٤٧هـ.

هؤلاء الأولياء لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا، ولكنهم دعوهم يتقربون بهم إلىٰ الله، ويتوسلون بهم؛ لأنهم مقربون عند الرب - جل وعلا -. وهكذا يكون العمىٰ !! وربما شبهوا الله بالملوك الظلمة، والأولياء بالحجاب، بل كثيرًا ما يفعلون ذلك، وتعالىٰ الله عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا.

أما دعاؤهم غير الله وقولهم: إنما ندعوهم؛ ليقربونا إلىٰ الله وليشفعوا لنا عنده فقد قال الله تعالىٰ في أمثالهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس:١٨].

فهذا الدعاء عبادة، بل هو مخ العبادة كما ورد عن النبي ﷺ [1] وكما فسر بالقرآن حيث قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾[غافر:٦٠]، وكما قال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[مريم:٤٨]، ثم قال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[مريم:٤٩] ففسر الدعاء بالعبادة في الآيتين.

وقولهم: إنما ندعو الله وهو قصدنا في قولنا: يا بدوي، أو يا دسوقي مثلًا، إنما هو في الحقيقة كقول النصارىٰ: الثلاثة واحد والواحد ثلاثة، وعيسىٰ هو الله والله هو عيسىٰ، وكقول الوجودية الملاحدة: العبد رب والرب عبد، من كل قول يناقض نفسه ويرد أوله علىٰ آخره، وينقض لاحقه تاليه، وإلا فما معنىٰ قول

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، من حديث أنس رضي الله عنه. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

أحدهم في الشدائد والكروب، يا بدوي. ويكون نفس هذا الاسم العلم علىٰ عبد معروف يكون معنيًّا به الرب جل جلاله - هذا لا يقوله عاقل.

وأما قولهم: (إنما نتوسل بهم)، فيقال له: يا عجبًا كل العجب !! أبعد أن أنزل الله الكتب وأرسل الرسل، وبين لنا ما نتقرب به إليه وما يحبه منا من أنواع العبادات نتجاهل ذلك، ونبتدع من عندنا توسلات أخرىٰ لم يأذن الله بها، بل نهىٰ عنها أشد النهي وكفر متخذيها أشنع تكفير؟؟

يا قوم - بصركم الله - هل أنزل الله الكتب وأرسل الرسل إلا ليعلموا الناس الوسائل التي تقربهم إلىٰ الله والتي يحبها؟ فما لكم تتركونها وتتخذون غيرها؟ هل أمركم الله باتخاذ الأولياء والتقرب بهم؟ أم قال لكم: ﴿ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] وهل قال لكم ربكم ورسوله: تقربوا إليَّ بأوليائي، أم قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النور: ٥٦]؟ ونحو ذلك من الأوامر؟

الحق أن أوامره ثقلت عليكم فنكصتم علىٰ أعقابكم تتقربون بمن عملوا وبمن تزعمون أنهم أولياؤه، وربما كانوا في الواقع وحقيقة الأمر غير أولياء. يقول الله تعالىٰ في بيان ما يقرب إليه من كتابه: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧]، وهنا كأن سائلًا سأل: فما يقربنا إليك يا رب إذن دلنا عليه وأرشدنا إليه؟ فقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] فبين سبحانه ما يقرب إليه وبين جزاءه وذلك هو الإيمان والعمل الصالح، فلا وسيلة إلىٰ القرب من الله ورضاه ودخول جنته سوىٰ الإيمان والعمل الصالح، وعلىٰ هذا تدل آيات القرآن، قال تعالىٰ:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر:١]

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[يونس:٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٧، ١٠٨]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التغابن: ٩] ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ [التغابن: ٩] الآيات، ويقول: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٣٢].

فما لكم ثقل عليكم الإيمان والعمل فلم تتوسلوا إلىٰ الله بهما؟ وجئتم تتوسلون بما نهاكم عنه من وسائل الكفار المؤدية إلىٰ النار وبئس القرار.

وفي الحديث القدسي الذي ذكره البخاري في «صحيحه»[1] عن النبي ﷺ عن الله عَزَّوَجَلَّ أنه قال: «**من عادىٰ لي وليًّا فقد آذنته بالحرب - أو بارزني بالمحاربة**» ثم بين ما تنال به الولاية فقال: «**وما تقرب إليَّ عبدي بأفضل مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه...** » الحديث.

فبين لنا أن أفضل ما يتوسل به المتوسلون إليه، ويتقرب به المتقربون إنما هو الفرائض والنوافل، وليس منها دعاء الأولياء كما لا يخفىٰ ،ولا الأنبياء ولا الملائكة، حتىٰ قال في كتابه المبين لمن يدعو غيره من المقربين: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] ثم بين لهم حال أولئك المقربين أنفسهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾[الإسراء:٥٧]؛ أي: إن الذين تدعونهم من دوني وتزعمون أنكم تتقربون بهم إليَّ هم أنفسهم يدعونني ويتقربون إليَّ بما شرعت لهم ويرجون رحمتي ويخافون عذابي، فكيف تتقربون بهم إليَّ وحالهم كما وصفت لكم بين رجاء وخوف؟

فلو أن الله تعالىٰ أحب أن نتوسل إليه بذوات أوليائه وأنبيائه وجاههم دون الإيمان والعمل لأمر بذلك ولسماهم لنا، ولبين الرسول ﷺ ذلك قولًا وعملًا كما بين كل شيء، بل كان هذا أحق بالبيان؛ لأن التوسل إلىٰ الله هو أصل الدين وأساسه، والمقصود من خلق الجن والإنس، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فعبادة الله تعالىٰ والتوجه إليه وحده هي الوسيلة لا غيره، ولكن إبليس اللعين العدو المبين للإنسان أراد صرف الناس عن عبادة ربهم، وإبطال التكاليف والعمل بالشرائع، فأمرهم بتوسل من عنده لم يشرعه الله ولا رسوله؛ ذلك هو التوسل بالأشخاص دون الأعمال، وقد وجده الناس خفيفًا علىٰ نفوسهم إذ لا يكلفهم شيئًا مما في العبادة من جوع وظمأ في الصوم، وقيام وركوع وسجود في الصلاة، وبذل نفس ومال في الجهاد في سبيل الله، قال إبليس اللعين لهم: يكفيكم أن تتوسلوا إلىٰ ربكم بالأولياء المقربين فتدعوهم وهم يتوسطون لكم عند ربكم. فأطاعوه فكانوا من الأخسرين أعمالًا ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٤ - ١٠٦] ثم ذكر ضدهم وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف:١٠٧] الآية.

فالوسيلة الشرعية المرضية عند الله ورسوله هي ما شرعه الله وأمر به،

وذلك الإيمان والعمل الصالح، فإن آمنت وعملت صالحًا نجوت وإلا فما إخالك ناجيًا.

ومن الآيات التي يلبِّس بها الشيطان وأولياؤه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] الآية فيقول شيطان الإنس: أمر الله بالوسيلة فلماذا تمنعونها؟.

والجواب: إننا لم نمنع الوسيلة الشرعية التي أمر الله بها في هذه الآية وغيرها، وقد أجمع المفسرون علىٰ أن معناها الإيمان والعمل الصالح.

أمر الله تعالىٰ المؤمنين بتقواه وعطف عليها بابتغاء الوسيلة إليه من عطف الخاص علىٰ العام مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، والإيمان بالرسول ﷺ داخل في الأمر بتقوىٰ الله، فكذا ابتغاء الوسيلة، وهذا واضح لمن أراد اتباع الحق وأنصف نفسه.

فإن قيل: أَمَا للأولياء كرامات؟ قلنا: نعم، وإن لم يكرم الله أولياءه فمن يكرم؟ ولكن الكرامات لا تستلزم دعاءهم من دون الله.

والناس قسمان: أولياء الله، وأعداء الله.

فأما الأولياء فقد وصفهم الله بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وهذا من باب: الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلا تنفل.

وأما أعداؤه فهم الذين لا يؤمنون ولا يعملون.

وقد قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١] الآية.

فإذا آمن العبد وعمل صالحًا كان وليًّا لله بقدر إيمانه وعمله وإخلاصه واتباع رسول الله ﷺ ويكرمه الله بما لا يحصىٰ من الكرامات، لكن لا تظن أن

الله يكرم وليه بقبول وساطته وشفاعته في مجرم يدعو غير الله، هذا محال.

علىٰ أن أولياء الله لا يشفعون لمشرك، ولا يتوسطون له عند الله بشفاعة، ولا يرضون ذلك، ولو رضوا لكانوا أعداء الله لا أولياءه، وكيف يشفعون في مشرك، أو يكرمهم الله بقبول شفاعتهم في مشرك يدعو غير الله من الأموات، صالحين أو طالحين؟

وقد ورد عن النبي ﷺ وعيد شديد فيمن شفع في أقل من ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد حاد الله عز وجل... الحديث**» رواه أبو داود وغيره[1]، وفي الباب أحاديث بهذا المعنىٰ، فكيف يرضىٰ وليُّ الله حقًّا أن يدعوه أحد من دون الله ثم بعد ذلك يشفع له، ويرجو أن يكرمه الله بقضاء حاجة الداعي غيره؟ هذا محال عند ذوي العقول، ومعنىٰ ذلك أن العبد يذل ويخضع بسؤال المخلوق الميت ودعائه، وطلب ما ليس في قدرته ولا في قدرة أي مخلوق، وهذا السؤال والدعاء عبادة، بل أظهر أنواع العبادة، ثم يأمل أن يقضي الله حاجته!! أي أن العبادة للمخلوق، وقضاء المصالح علىٰ الخالق.

وهذا هو الظلم العظيم الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فأي عاقل يرضىٰ أن يطعم خادمًا ويسقيه ويكسوه ويقضي له مطالبه وهو يخدم غيره؟

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٧٠)، وأبو داود (٣٥٩٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٥٩٧).

الدين النصيحة[١]

هذا لفظ حديث صحيح عن تميم الداري [٢] وبمعناه عن جرير بن عبد الله رواه البخاري [٣] ولفظ الحديث قال: «**بايعت رسول الله ﷺ علىٰ إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم**».

فدل الحديث علىٰ أن النصح لكل مسلم من الأمور المهمة حتىٰ قرن بالصلاة والزكاة في المبايعة.

والنصح: أن تحرص علىٰ إيصال الخير لكل مسلم، وإبعاد الشر عنه بكل ما يمكن، ويدخل في ذلك تنبيهه للخير بتركه سهوًا أو عمدًا وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وتبصيره بعيوبه.

وقد قال العلماء في تعريف النصح بما يقرب مما قررنا وذلك (إرادة الخير للمنصوح له).

ولكن أصبحت [٤] كلمة (نصح) وما يشتق منها أثقل من الجبال علىٰ قلوب الناس وأسماعهم، بل اعتبرها كثيرٌ منهم سُبَّة! فإذا قلت لإنسان: يا أخي، أريد أن أنصحك؟ ابتدرك قائلًا من قبل أن يسمع حرفًا واحدًا من نصيحتك:

---

(١) صحيفة أم القرىٰ العدد (٦٦٧)، في ١٢/ ٧/ ١٣٥٦ هـ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٥)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧، ٥٢٤).

(٤) في الأصل «أصبت».

«انصح نفسك» وخصوصًا إذا كان الناصح فقيرًا والمنصوح غنيًّا أو كان عاميًّا والمنصوح عالمًا ولو في نظر نفسه. فلا تسل عما يلقىٰ الناصح من التعنيف والتوبيخ والسب إن لم يضرب ويحقر!!

فلما تكبر الناس وفشا فيهم العجب بأنفسهم والغرور ورأىٰ الناصحون من الأذىٰ ما ضرهم ولم ينفع المنصوحين ترك أهل العلم النصيحة لأنها لا تقبل منهم، وأصبح أهل الدين في نظر الأغنياء وأهل علم الدنيا كالصفر علىٰ يسار العدد، لا قيمة له، بل أصبح وجودهم عالة وقذىٰ في العيون وشجىٰ في الحلوق حتىٰ أصبح أحدهم يتمثل بقول الشاعر:

فلو أن قومي أكرموني وأتأقوا[1] ... سجالا بها أسقي الذين أساجل

كففت الأذىٰ عما عشت عن حلمائهم ... وناضلت عن أعراضهم من يناضل

ولكن قومي عزهم سفهاؤهم ... علىٰ الرأي حتىٰ ليس للرأي حامل

تظوهر بالعدوان واختيل بالغنىٰ ... وشورك في الرأي الرجال الأماثل

وإنما كان هوان أهل الدين عند أولئك المغرورين المفتونين لقلة دينهم وفحوىٰ قلوبهم منه وجهلهم به وعدم تعظيمهم له، زد علىٰ ذلك طمع أهل الدين أنفسهم في أهل الدنيا وركونهم إليهم وإظهارهم الحاجة والفاقة والحرص علىٰ ما في أيديهم.

ولو أن أهل الدين استغنوا عن أهل الدنيا كما استغنىٰ أهل الدنيا عنهم وزهدوا فيما عندهم لكان قولهم مسموعًا، ورأيهم متبعًا ومحترمًا إذ كان

---

(١) التَّأَقُ: شدَّة الامْتِلاء. «لسان العرب» (تأق).

العلماء في القرون المفضلة كسفيان الثوري وابن عيينة والشافعي وابن حنبل وحسن البصري وأحزابهم[١] تسمع نصائحهم، ويعمل بأقوالهم، ويصبرون علىٰ الضراء صبر الكرام؛ ويصومون النهار ويقومون الليل وتشبعهم الكِسْرة، فأمثال هؤلاء حقًّا كان يسمع نصحهم، ويخشىٰ خلافهم.

فقل لي -بربك - ماذا نعمل إذا كان الناس مقبلين علىٰ شهواتهم، تاركين أوامر ربهم كارهين للحق كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[الزخرف:٧٨].

إن أهل الشهوات يكرهون كل من يحول بينهم وبينها ولو كان ألطف من النسيم العليل وأعذب من الماء السلسبيل. وهذا رسول الله ﷺ وهذه سنته أتراهم يحبونها ويعملون بها إلا فيما يوافق الهوىٰ، ألم يقل رسول الله ﷺ: «**إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوىً متبعًا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك**»[٢].. الحديث أليس هذا هو الزمان الذي ينطبق عليه الحديث؟!

ونقول في جواب ذلك: لا بد من النصح لكل مسلم وتحمل الأذىٰ في ذلك وإلا بطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح المقرون بالصلاة والزكاة، وعلينا أن ننصح سواء قُبِلَ منا أم لم يقبل، وسواء أوذينا في ذلك أو لم نؤذ، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[العنكبوت:١٠].

---

(١) أي من صار علىٰ نهجهم، وليس مقصود الشيخ رحمه الله التعصب والولاء لهم، فانتبه.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

وكل ما قيل من تطاول الأغنياء علىٰ الفقراء وغير ذلك لا يمنع من النصح، لكن ينبغي أن يكون النصح سرًّا للخواص، فإن إعلان النصح فضيحة، وتركه لنيل ما عند المنصوح من دنيا بخس واشتراء بآيات الله ثمنًا قليلًا.

فإذا تحقق الناصح من عدم قبول نصحه أو نزول ضرر به فله حينئذ أن يسكت وينكر بقلبه، والله الهادي إلىٰ سواء السبيل.

الفهرس

مقدمة ٣
الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ٦
الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ كيف تكون؟ وعلىٰ أيِّ أساس تقوم ١٢
أركان الدعوة إلىٰ الله ١٦
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٠
أيها الداعي غير الله ٣٠
هكذا يكون العمىٰ ٣٧
الدين النصيحة ٤٤
الفهرس ٤٨

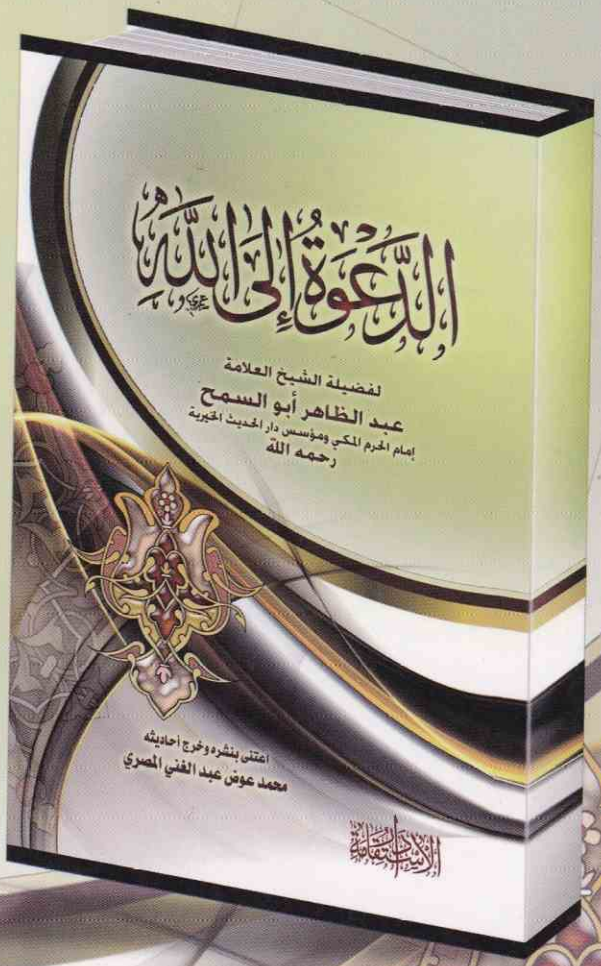
الدعوة إلى الله
لفضيلة الشيخ العلامة
عبد الظاهر أبو السمح
إمام الحرم المكي ومؤسس دار الحديث الخيرية
رحمه الله
اعتنى بنشره وخرج أحاديثه
محمد عوض عبد الغني المصري

الإسلام والحياة

جمهورية مصر العربية - القاهرة

ش الهدي المحمدي - أحمد عرابي - مساكن عين شمس

ت: 0020127483263-0020185183442 - تليفون وفاكس: 0020229876377

dar.alestkama@yahoo.com - dar.alestkama@hotmail.com